المحاضرة05:الاتجاه الاجتماعي في المسرح الجزائري

تمهيد:

خالف النص المسرحي كثيرا من الأجناس الأدبية، كالرواية والقصة والشعر، حيث سايرت كلها الأحداث الكبرى التي وقعت في الجزائر بعد الاستقلال فكتبت هذه الأجناس عن الاشتراكية (1962-1979م)، وعن ثوراتها الزراعية والصناعية والثقافية، وعن حالة الفلاح، والعامل، والطالب، والتكافل الاجتماعي... وغيرها، أما النص المسرحي فلم يتعرض إلا للمشاكل الاجتماعية بعيدا عن السلطة وتأثيرها السلبي أو الإيجابي في المجتمع[i]، لذلك نجد أغلب المسرحيات تناولت الموضوعات الاجتماعية كمشاكل الأسرة والدجل والسحر والشعوذة والتسول والفقر، وواقع المثقفين من الكتاب والأدباء... الخ.

أولا- بدايات المسرح الاجتماعي.

إن المسرح الاجتماعي في الجزائر كان الغالب منذ البدايات الأولى لهذا الفن، وقد كانت الموضوعات الاجتماعية ذات السمة الشعبية البسيطة هي موضوعات "علالو ورشيد القسنطيني ومحي الدين باشطارزي"، وهم الرعيل الأول من رجال المسرح الجزائري ثم حذا حذوهم كل الذين أحبوا هذا الفن واشتغلوا به، معتمدين على الارتجال والعفوية في أعمالهم المسرحية سواء ما كان منها باللهجة العامية أو باللغة العربية الفصيحة.

ولعل المسرحيات الاجتماعية التي ظهرت أعقاب الحرب العالمية الثانية، كانت أكثر نضجا وتطورا، سواء من الناحية الأسلوبية أو الشكلية أو اللغوية، حيث تميزت بالأسلوب الأدبي الراقي وباللغة العربية الفصحى التي تفهم في جميع أنحاء الجزائر،[ii] ولقد كانت المسرحية الاجتماعية أسبق في التأليف من الاتجاهات الأخرى.

وأول مسرحية تكتب في هذا الاتجاه هي مسرحية "الشفاء بعد العناء" لعلي شريف طاهر سنة 1921 في فصل واحد، ثم "قاضي الغرام" أو "خديعة الغرام" في أربعة فصول سنة 1924م للمؤلف نفسه،[iii] ثم تابعت المسرحيات الاجتماعية بعد ذلك، والتي تهدف إلى إصلاح الأمراض الاجتماعية التي نخرت كيان المجتمع وهددت حياة أسره بالخراب والدمار، واستفلحت في عقول الناشئة وتصرفاتهم.

ومن المسرحيات التي كتبت قبل الثورة، وبالتالي قبل الاستقلال مسرحية "مضار الخمر والحشيش" لمحمد العابد الجيلالي، و"شبان اليوم"، و"الواجب" لمحي الدين باشطارزي، و"أدباء المظهر" و"الأستاذ" و"البخلاء الثلاثة" لأحمد رضا حوحو، و"امرأة الأب" لأحمد بن ذياب،... الخ[iv]، وقد عرضت عشرات منها على المسارح تطرح مختلف الموضوعات الاجتماعية بأسلوب كوميدي ساخر، ونالت نجاحا منقطع النظير.

أما مرحلة ما بعد الاستقلال فيحظى فيها الأديب "أحمد بودشيشة" بالنصيب الأول في كتابة المسرحية الاجتماعية، حيث ألف ما يقارب عشرين نصا، تضمنها مجموعات مسرحية بعناوين مختلفة منها: "المغص واللعبة، وفاة الحي الميت، الصعود إلى السقيفة، البواب... الخ، وقد كتبها بين (1970-1986م)، كما كان لمحمد مرتاض باع في المسرح الاجتماعي، وله مسرحية "الانتهازية"* و"مدرسة العجائب" لزهير علاف، و"سيدي العفريت" لعلال عثمان، و"الراعي وحكاية ثورة" لمحمد مرتاض باع في المسرح الاجتماعي، وله مسرحية ""الانتهازية"* و"مدرسة العجائب" لزهير علاف، و"سيدي العفريت" لعلال عثمان، و"الراعي وحكاية ثورة" لمحمد الأخضر السائحي[v]، وبالتالي فإن رجال المسرح الجزائري عالجوا عدة مواضيع اجتماعية قبل وبعد الاستقلال، والتي كانت متفشية بشكل لافت في مجتمعنا.

ثانيا- موضوعات المسرح الاجتماعي.

إن المسرح الاجتماعي في الجزائر عالج عدة مواضيع اجتماعية، بهدف محاربة الآفات الاجتماعية المتفشية في المجتمع الجزائري، ويمكن تقسيم هذه الموضوعات إلى ثلاثة محاور وهي:

1- مشاكل الأسرة:

تعد مسرحية "امرأة الأب" لأحمد بن ذياب من أهم مسرحيات هذا المحور، وهي مسرحية اجتماعية ذات أربعة فصول، كتبت سنة 1952 بمدينة العلمة بالشرق الجزائري، استقى مؤلفها الموضوع من الأمراض الاجتماعية التي كانت متفشية في الأسرة الجزائرية إبان فترة الاحتلال،[vi] والمسرحية في مضمونها تنقل صورة لحالة المرأة الجزائرية في جانبي الخير والشر، ضمن أسلوب تربوي هادف للأسرة، بما تحتويه المسرحية من شعر كثير، وحكم غزيرة وكلام راق.

وموضوع المسرحية مهم وحساس، إذ تعالج مشاكل عدة كاليتم، ومكر النساء وكيدهن، وإفساد المجتمع، والشعوذة، وهذه الصورة السلبية للمرأة نجدها أيضا في مسرحية "البيت الشريف" لأحمد

بودشيشة، حيث يعرض حياة ثلاث أسر يلجأ الشباب فيها والشابات إلى إقامة علاقات مشبوهة ونجدها أيضا في المسرحية الثانية للمؤلف نفسه "امرأة ورجلان"، إذ تعرضت لمكر النساء[vii]، والملاحظ أن أحمد بودشيشة اهتم كثيرا بمشاكل الأسرة في مسرحياته، وعالجها من زوايا مختلفة، فمرة يتحدث عن اليتم وأثره في تشتت الأسرة، ومرة أخرى يعالج كيد النساء ومكرهن، وفي مسرحيات أخرى يعالج إشكالية الطلاق*، أو مشاكل الأسرة المختلفة.

ولزهير علاف باع أيضا في مجال المسرح الاجتماعي، إذ كتب ضمن مسرحياته "مدرسة العجائب" عن هموم الأسرة ومشاكلها مسرحيتين، الأولى بعنوان "نامي إلى الأبد يا عزيزتي" عرض فيها إلى أمور الغيرة بين الزوج والزوجة وأثر ذلك على علاقتهما، والمسرحية الأخرى بعنوان "ثقلاء" تعرض للقلق الذي تحدثه عائلة لا تأبه بأن تزعج عائلة أخرى،[viii] وما يسجل على هذه المسرحيات جميعا أنها تعبر عن قضايا اجتماعية أفرزتها سنوات الثورة والسنوات الأولى للاستقلال وهي في مجملها نتاج التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي طرأت على المجتمع الجزائري.

2- الفقر والشعوذة:

إن السياسة الاستدمارية في الجزائر، أسهمت وبشكل لافت في تفشي الأمية والجهل، والإيمان بالخرافات في أوساط المجتمع الجزائري عموما، والقرية على وجه الخصوص، ولقد التفت كتاب المسرح إلى هذه المظاهر المشينة فكتبوا عدة مسرحيات سواء قبل الثورة أو بعدها، فمحمد التوري مثلا، قدم مسرحية "بوحدبة"* في هذا المجال، وهي عبارة عن كوميديا ساخرة في ثلاثة فصول، تناولت شخصية الرجل المعوق الذي ينفق أمواله لشفاء زوجته من مرض عضال، وبعد شفائها تحاول حماته تطليق ابنتها منه، خاصة وأنه أصبح فقيرا ومعدما.

وهذه المسرحية تتميز بأسلوبها الساخر الهزلي الضاحك، ذلك أنها من المسرحيات الشعبية التي تعتمد أدوارها على ممثلين كوميديين يتميزون بالخفة والرشاقة في الأداء، فالمسرحية كلها استعراض حركي مضحك وساخر نتيجة شخصياتها كبوحدبة، والملاكم، والأعرج... الخ[ix]، والمسرحية في عمومها تعكس واقع المجتمع الجزائري قبل الثورة، ونظرة الآخر إلى الرجل إذا كان فقيرا بغض النظر عن أخلاقه وسمو تصرفه وطيبته، وبالمقابل تعكس صورة الزوجة الوفية لزوجها في السراء والضراء، وفي الضيق والسعة.

وهناك مسرحيتان خصصتا لعرض مشكلة الشعوذة والدجل، الأولى عنوانها "البشير" لأبي العيد دودو تعرض لواقع الأسرة الريفية الجزائرية قبل اندلاع الثورة التحريرية، بطلها شاب في العشرين من

عمره مثقف وواع اسمه "البشير"، ولكنه يصاب بهذيان شديد يدفع الأم إلى كتابة الحروز والتمائم وقراءة التعاويذ له عند "سيدي الطالب"، وبذلك تدخل في صراع مع زوجها، وابنها البشير الذي ينتصر في النهاية على خرافات الطالب ويبطلها، داعيا الناس وأهل القرية إلى ترك الشعوذة والدجل، والتهيؤ للثورة ضد الواقع المزري الذي فرضه المستعمر.

والمسرحية الثانية عنوانها "سيدي العفريت" لمؤلفها علال عثمان تحكي حياة مشعوذ يعتقد بوجود العفاريت وقدرتهم وقوتهم على إفادته، وهو دائم الاستعانة بهم، وخاصة سيدي بوزعبول،[x] والحقيقة أن هناك مسرحيات كثيرة عالجت مشكلة الفقر والدجل والشعوذة مثل: الساحر الأحمر، السحار، والجن المجنون*، ولكن الإشكال أن هناك صعوبة في العثور على النصوص المسرحية، فأغلبها ضاع ولم يبق إلا نزر قليل منها.

3- واقع المثقفين والأدباء:

تعد مسرحية "أدباء المظهر" لأحمد رضا حوحو من أهم المسرحيات في هذا المحور، وهي مكونة من فصلين تدور أحداثها حول الأستاذ "خليل" الذي وجد نفسه بين أناس أدعياء للعلم والأدب يملئون السوق بأدبهم الهابط، ويروجون له فافسدوا الحياة الأدبية، وضيقوا على رجال الأدب الحقيقيين، وحتى لا يموت الأستاذ "خليل" جوعا سار في ركب هؤلاء ولجأ إلى وسيلة دعائية بأنه يستطيع تعليم وتكوين أدباء في ساعتين من الزمن[xi]، وعليه فإن المسرحية اجتماعية اهتمت بالأدب والأدباء وإن غلب عليها جو السخرية، استطاع أحمد رضا حوحو فيها أن يعرض لظاهرة استفحلت في المجتمع العربي ككل، وهي كثرة أشباه الأدباء والمتطفلين على العلم والأدب والمعرفة والكتابة والتأليف.

وهناك مسرحية أخرى لأحمد بودشيشة عنوانها "البواب"، يقص فيها المؤلف حالة مثقف أراد أن يقابل رئيس تحرير صحيفة وطنية في يوم من الأيام، بعد أن وجه له دعوة وحدد له موعدا، لكن البواب يعيقه ويمنعه من الدخول حتى يقدم له دليلا ماديا[xii]، ولقد استطاع أحمد بودشيشة أن يعبر عن واقع المثقف في المجتمع بأسلوب ساخر ولغة فصيحة وحوار مسرحي بديع بين البواب والمثقف، حيث منعه من الدخول وأمره بالانصراف، في حين يستقبل النساء والفتيات ويوفر لهن كل ما يطلبن برحابة صدر وسعة.

وللمؤلف نفسه مسرحية بعنوان "المغص" يرصد فيها الواقع المرير الذي يعانيه أديب وهو يكتب مسرحيته حيث يواجه عوائق وعراقيل وصعوبات تحول دون تحقيق مطلبه، فالزوجة لا تأبه لطموحه، ولا تفكر إلا في الأكل واللباس ومظهرها أمام صديقاتها وقريباتها، وابنته تنغص عليه حياته وتحرمه من إتمام عمله الإبداعي، حتى صار يتوهم أبطال مسرحيته يشترطون عليه أن يصورهم كما يريدون،[xiii] وفي هذه المسرحية تصوير لهموم المثقف والأديب ومشاكله داخل المجتمع، حيث تنتهي برفض مدير المسرح لمسرحيته بحجة عدم صلاحيتها للعرض والتمثيل.